آراء حرة

بين العقاد والرافعي

للأستاذ سيد قطب

كنت قد أعددت هذه الكلمة قبل أن أقرأ كلمة الأستاذ سعيد العريان الأخيرة ، ومقدمته لها . فلما قرأتها لم أجد أن أغير في كلمتي شيئاً ...

وبقي أن الأستاذ يقول عما كتبت : « ومع ذلك فان ما أتى به من النقد ليس بشيء عندنا » . فان كان يكفي في الحكم أن يقول الانسان هكذا فيكون ذلك قضاء ، فانا — على طريقته — لانتكلف أكثر من حذف أداة النفي فنقول : هو « (بشيء) عندنا » وبذلك تنتهي !

وبقي أنه عرض بي في ثنايا مقاله بعد ما تخلى عن الرد وقال إنه مؤرخ .. تعريضا غير لائق . فما مثلي بمن يحتاج لمن يفهمه أدب الرافعي وليس فيه شيء لمثلي غير مفهوم ، وماهو بصاحب طريقة في الفكر والفن ، إنما هو صاحب طريقة في التعبير ، وأنا أحد الاخصائيين في اللغة التي يعبر بها

على أن هناك مايضع حداً للجدل . أليس الأستاذ سعيد العريان يفهمه ؟ . بلى . فأنا إذن من باب أولى أفهمه .

سيد قطب

— ٣ —

حين قال الأستاذ سعيد العريان عن نقد الرافعي لوحي الأربعين : إنه بلغ فيه ذروته ، وجمع كل فنونه ، كان صادقاً في قوله ، وكنت مخطئاً في الاعتراض عليه ، كما اتضح لي الرأي في هذا الأسبوع الأخير !

وحين قلت : إن الرافعي أديب « الذهن » لاأديب «الطبع» وأنه ينقصه « القلب » المهيأ للحب ، وأنه لايعنيه إلا أن يصور الحقائق الوقتية الصغيرة في صورة خلابة ، لم يكن هذا المعنى واضحاً محدداً في ذهني كما اتضح في هذا الأسبوع الأخير !

وحين ذكرت أن الرافعي ذكي ، قوي الذهن ، كنت متسامحاً جد التسامح أو مبالغاً جد المبالغة ، ولم أعلم ذلك كما علم الأسبوع الأخير ! وإليك البيان ...

حينما أمسكت بالقلم لأكتب الكلمة الأولى بهذا العنوان ، كان في ذهني ونفسي صدى مطالعاتي القديمة للرافعي ، وهو صدى غامض يدل على الجملة ، ولا يمد الناقد بالتفصيل .

وحينما كتبت الكلمة الثانية ، لم يكن بين يدي إلا نقده لوحي الأربعين ، فأبديت رأيي فيه كما رأى قراء الرسالة

ولكنني حين رحت أتلمس الأمثلة من بعض كتب الرافعي وأخذت أن أبدأ « برسائل الأحزان » ، اصطدمت بالرافعي من جديد ، واختلف الصدى الغامض القديم ، عن الصوت الواضح الجديد . (أحسست صدق الأستاذ سعيد في نعته لنقد وحي الأربعين ، فإنه — على مابه — في الذروة من نتاج الرافعي كله كما قال !

وأحسست أنني أخطأت في عدم تحديد « الذهن » الذي قلت إن الرافعي يصدر عنه في أدبه ، فن الذهن ماهو سليم أو مريض ، وماهو مشرق أو خابٍ ، وما هو متفتح أو مغلق ... إلى مالا نهاية له من ألوان الأذهان !

وأحسست أنني خدعت في « قياس ذكاء » الرافعي ، ومعرفة طبيعته ودرجته ، حتى ردتني إلى القياس الصحيح « رسائل الأحزان » ! وإنني لأحس بالغضاضة في هذا التراجع ، فيعزبني عنه « الصدق » الذي أعبر عنه حين أنصت لاحساسي وأصور حقيقة رأيي .

* * *

الرافعي أديب الذهن ، ولكنه الذهن الملتوي المتاظل المداحل الذي لا يستطيع أن يسلك أقرب طريق إلى ماريد ، بل يتخذ الدروب والمنحنيات ، ويلتف حول نفسه ، ويعصر نفسه ، مرة ومرة ، قبل أن يصل إلى الحقيقة الهينة الصغيرة ، التي تعثر بها الأذهان المستقيمة مدى ذراع .

والرافعي يصدر في أدبه عن ذكاء ، ولكنه ذكاء اللمحة والومضة ، لاذكاء الاشراق والصفاء . الذكاء الذي يخبط بجناحه هنا ، ويخبط بجناحه هناك ، فيهيء للناظر أنه يرفرف ويطير ، والواقع أنه مكب على الثرى ، وما هي إلا خفقات الجناح

والرافعي في رسائل أحزانه يتراءى كأنما يتمطى في أغلال ، أو يتنزى في وثاق ، يحاول أن يتفلت من هذا وتلك ، وهو ينفض رأسه ويضرب بقدميه ، ويضرّس أنيابه ، في حركات عصبية ، ليخلق اللفظة بعد اللفظة ، والجملة بعد الجملة ، والخاطرة بعد الخاطرة ، في جهد وعناء !

وإنك لتسأل بعد قراءتها : أهذه رسائل حب ؟ أو ذكرى حب ؟ وأنت خليق أن تفتقد فيها الانسان قبل الفنان

* * *

إسمع قصيدة صدر بها أحد كتبه ولا شك أنه معجب بها ، إسمع الشعر الذي يعجب من ينقد شعر العقاد فى الحب :

من لمحب ومن يعينه ؟ والحب أهنأه حزينه
أنا ما عرفت سوى قسا وته فقولوا كيف لينُه
إن يقض دين ذوى الهوى فأنا الذى بقيت ديونه
قلبى هو الذهب الكر يم فلا يفارقه رنينه
قلبى هو الألماس بعـ رف من أشعته ثمينه
قلبى يحب وإنمـــا أخلاقه فيـه ودينـه

فهذا الشاعر الذى ينقد شعر العقاد فى الحب ، هو الذى يعجبه ما يقلد من شعراء الدول المتتابعة والمماليك فى مصر ، وشعراء أواخر العهد العباسى فنسمع رنين شعرهم فى :

« إن يقض دين ذوى الهوى فأنا الذى بقيت ديونه »

يعجبه هـذا الذى لا يرتفع مستواه الفنى على أن يذكر « قلبه » فى سوق « المجوهرات » من الذهب والألماس ، معتقداً أن تلك « المعادن » أثمن من « القلوب » لأنهـا تقوّم بالمال الكثير فى السوق

وما عن تهكم أصدر فى هذا التعبير ، فهى حقيقة تعززها الأمثلة الكثيرة فى « الرسائل » وسيأتى هذا فى موضعه

أما القصيدة بعد هذا فخطبة منبرية ، لا تعرف إن كان صاحبها محباً حياً يثير الحب فى نفسه وأعصابه دفعات الحب ، وينبه خواطره وخوالجه ، ويعمق إحساسه بالحياة ، ويضاعف شعوره ، أم إنه واعظ يدعو فى جفاف وجفوة إلى « عدم الاعتداء على الأعراض » بأسلوب لا يتصل بالقلوب ، كمعظم خطباء المساجد فى هذه الأيام :

يا من يحب حبيبـه ويظنه أمسى يهينه
وتعف منه ظواهر لكنه نجس يقينه
كالقبر غطته الزهو ر وتحته عفِنٌ دفينه
ماذا يكون هواك لو كل الذى تهوى يكونه
دع فى ظنونك موضماً إن الحبيب له ظنونه
وحذ الجميل لكى تزيـــن الحسن فيه بما يزينه
إن تنقلب لص العفا ف لمن تحب فمن أمينُه

الخ ... الخ

ولعل أصدقاء الرافعي فى نشوة حين يطالعهم بهـذه الصورة الذهنية :

كالقبر غطته الزهو ر وتحته عفِنٌ دفينه

ولكن أين هذا أيها « الاحياء » فى عالم الحب الحى ، وإن هو إلا « اللعب على الحبل » فى هذا الميدان ؟

* * *

ثم ماذا ؟ ثم اسمع الشاعر الذى لا يعجبه شعر العقاد فى الحب:

حسناء خالقها أتم جمالهـا سألته معجزة الهوي فأنالها
لما حباها الله جل جلاله بالحسن منفرداً أجل جلالهـا
تضنى المحب كأنما أجفانها ألقت عليه فتورها وملالها
هيفاء قد شب النسيم قوامها غصناً فإن خطر النسيم أمالها
سيالة الأعطاف أين ترنحت تطلق لكهربة الهوى سيالها

هكذا نعود إلى شعراء الدول المتتابعة فى التكلف والمعانى المطروقة التى يباع كل عشرة منها بقرش فى هذه الأيام ! ولا نرتفع عن « الأجفان التى تلقى على المحب فتورها وملالها » ، ولا عن « النسيم الأعمى أو الأصم أو الثقيل الحس الذى يحسب المحبوبة غصناً ، لماء أو صممه أو ثقل حسه ، فيميلها عند مروره !

وهكذا لا ندخل أبداً فى زحمة الحياة وتياراتها ، ولا نحس الحياة فى خالجة أو خاطرة ، ولا « نعيش » فى هذا الحب عيشة الأحياء الذين يتأثرون بحسهم وأعصابهم وخوالجهم بجانب أذهانهم ، أو حتى الأحياء الذين تلتفت أذهانهم وحدها إلى صور الحياة وأشكالها ، ودوافعها وأمواجها ولو لم يندمجوا فيها ، ويتأثروا بها !

ولكن لا ، فقد كسبنا التفاتة ذهنية رخيصة ، لا بل التفاتة عرفية أو كلامية ، فان هذه الحبيبة لما « انفردت » فكانت لها صفة « الوجدانية » فى الحسن « أجل جلالها » الله « جل جلاله »

فليلق بالهم إلى ذلك علماء « الكلام » ، فما كتب إلا لهم

وحتى لا تفهم أن الشاعر قديم ، اقرأ التجديد الذى تندق دونه الأعناق !

سيالة الأعطاف أين ترنحت تطلق لكهربة الهوى سيالها

أفبعد « الكهرباء » وهى آخر ما كشف من قوى الطبيعة قولة لقائل من المجددين الذين يتقدم الرافعى النقد الشديد ؟

فمن يكن فى شك أو ظل من شك فليقرأ ، ليعرف أنها لم تكن خطرة عابرة فى التجديد ، وإنما هى عن تعمد وسبق إصرار

يا نجمة أنا فى أفلاكها قمر من جذبها لى قد أضللت أفلاكى

هناك الكهرباء ، وهنا الجاذبية ، أبعد هذا يكون شك أو ظل من الشك ؟ لا . وألف مرة لا !

ولا شىء وراء هذا العبث الذى لا نريد له نقاشاً وإن كان فيه — لو شئنا سلوك طريقة الرافعى فى النقد — مجال لعشرات الغمزات والنهكات

* * *

وقد قلت لك : إن الرافعى يغالى « بالمجوهرات » فاسمع :

يقول للصديق المفروض أن هذه الرسائل تكتب إليه . إنه سيقص له قصة حبه لا بالترتيب

« فإن هذا مما يحسن فى تاريخ صخرة تتدحرج ، أما أنا فسأقدم لك تاريخ لؤلؤة فريدة »

ولست أدري الفرق لدى الفنان « الحي » بين أن يقص تاريخ صخرة وتاريخ لؤلؤة إلا أن يكون « الثمن » هو الفارق بينهما .

أفهم أن يقول : « إن هذا مما يحسن فى تاريخ صخرة ، أما أنا فسأقدم لك قصة حياة . أو قصة بنية حية يدخل فى تأليفها ودوافعها شىء غير الزمان والمكان ، هو الحس والشعور . أو تاريخ نبتة تنمو من داخلها أكثر مما تنمو في خارجها » أو أى تعبير آخر يدل على أن القائل يستشعر الحياة فى أعماقها ، أو ظواهرها على الأقل ، ويرى « القلب » شيئاً حياً ، جماله فى حياته ، وإن لم يقوّم فى سوق المجوهرات بعشر ماسة أو قطعة صغيرة من الذهب ! ثم اسمع : يقول فى إحدى الرسائل : « أما سمعت بذلك الأعرابى الذى قيل له : ما بلغ من حبك لفلانه ؟ » فقال : والله إنى لأرى الشمس على حائطها أحسن منها على حيطان جيرانها ... ، قد والله صدق وبرت يمينه » فإن فى كلمته الشعرية لأثراً من « عينيه » ، إذ يرى الشمس على حائطها كالشمس على « البلور الصافى » لا على الحجر والمدر »

إن الأعرابى ليرتفع إلى الذروة الفنية فى قولته الساذجة ، ويخيّل إليك الحياة المشرقة فى « ضميره » ، — لا عينيه وحدهما — وهو ينظر إلى الشمس على حائط حبيبته ويكشف عن « الخصوصية » الدقيقة التى ترى « شمس حبيبته » وكأنها خلقة خاصة بها لا يشاركها فيها سواها ... الخ ما يتسع له التصور من ألوان الامتياز الوجدانى فى هذا الأعرابى

ولكن صاحبنا لا يرى فى هذا إلا أن « الشمس على حائطها كالشمس على البلور الصافى ، لا على الحجر والمدر »

فمدار الجمال إذن هو نفاسة ما تطلع عليه الشمس وثمنه فى السوق ، ولا شك أن البلور أغلى من الحجر والمدر !

ولعله هو أو أحداً من أصدقائه لا يستطيع أن يصدق أن الشمس على « الحجر والمدر » الرخيصين أجمل ؛ أو على الأقل قد تكون فى وضع ما أجمل من الشمس على « البلور » الغالى الثمن ، وذلك عند « الطبع » الحى ، الذى يعيش فى الحياة الرحبة ، لا فى سوق المجوهرات !

واسمع ... فى رسالة أخرى :

« ثم يجرى كلامه فيها شعراً خالداً مطرداً كنهر الكوثر فى رياض الجنة ، حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت »

أرأيت ؟ الذهب والدر والياقوت !

ولا يتشكك صاحبنا فى أن النهر الذى حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت أجمل من النهر الذى حافتاه من العشب الأخضر ، ومجراه على الرمل والطين .

لا يلتفت إلى أن الأول ممنوع قد يبهج العين لحظة ثم لا تحس وراءه حياة ، ولا معنى أعمق من ظاهره ، فتمله النفس ؛ أما الثانى فهو لا يأخذ « العين » بالبريق والوهج ، ولكنه يملأ « النفس » بالروعة والجمال ، ويتيح لها التأمل العميق فى الطبيعة ، والاندماج بين الحياة الجارية فى النهر والحياة الجارية فى النفس ، لقرب النشأة والتكوين

لا لا . قالهم هو البريق الذي يخلب الحس ، والأهم هو « السعر » المقدر للياقوت والطين . وشتان شتان !

* * *

وبعد فقد كان فى هذه الأمثلة الكفاية لتوضيح نظرتى فى الرافعى والبرهان عليها ، وكل مثال يغني عن سواه . وقد تعمدت أن أختارها من اللفتات الصغيرة الخاطفة ، ومما يستجاد عند مدرسته ، وهى أدل على طبيعة الفكر ومعدن الذهن

ولكن لدى أمثلة فى نهج آخر يؤدى إلى النتيجة نفسها ، وموعدى مع قراء الرسالة فى ذلك كلمة أخرى بعد أن طال هذا المقال

(حلوان) سيد قطب